ويقصد من قوله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) التعريض بنصارى نجران ؛ إذ ألزموا المسلمين بأن القرآن يشهد لكون الله ثالث ثلاثة بما يقع في القرآن من ضمير المتكلم ومعه غيره من نحو خلقنا وأمرنا وقضينا وزعموا أن ذلك الضمير له وعيسى ومريم ولاشك أن هذا إن صح عنهم هو تمويه ؛ إذ من المعروف أن في ذلك الضمير طريقتين مشهورتين إما إرادة التشريك أو إرادة التعظيم فما أرادوا من استدلالهم هذا إلا التمويه على عامة الناس .

(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب [7]) جملة حال أي وهم لا قبل لهم بتأويله ؛ إذ ليس تأويله لأمثالهم كما قيل في المثل " ليس بعشك فادرجي " .

ومن هنا أمسك السلف عن تأويل المتشابهات غير الراجعة إلى التشريع فقال أبو بكر رضي الله عنه " أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في كتاب الله بما لا أعلم " وجاء في زمن عمر رضي الله عنه رجل إلى المدينة من البصرة يقال له صبيغ بن شريك أو ابن عسل التميمي فجعل يسأل الناس عن متشابه القرآن وعن أشياء فأحضره عمر وضربه ضربا موجعا وكرر ذلك أياما فقال " حسبك يا أمير المؤمنين فقد ذهب ما كنت أجد في رأسي " ثم أرجعه إلى البصرة وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن يمنع الناس من مخالطته . ومن السلف من تأول عند عروض الشبهة لبعض الناس كما فعل ابن عباس فيما ذكرناه آنفا .

قال ابن العربي في " العواصم من القواصم " " من الكائدين للإسلام الباطنية والظاهرية " . قلت : أما الباطنية فقد جعلوا معظم القرآن متشابها وتأولوه بحسب أهوائهم وأما الظاهريون فقد أكثروا في متشابهه واعتقدوا سبب التشابه واقعا فالأولون دخلوا في قوله (وابتغاء تأويله) والأخيرون خردوا من قوله (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) أو وما يعلم تأويله إلا الله فخالفوا الخلف والسلف . قال ابن العربي في العواصم " وأصل الظاهريين الخوارج الذين قالوا : لا حكم إلا لله " يعني أنهم اخذوا بظاهر قوله تعالى (إن الحكم إلا لله) ولم يتأولوه بما هو المراد من الحكم .

والمراد الراسخون في العلم : الذين تمكنوا في علم الكتاب ومعرفة محامله وقام عندهم من الأدلة ما أرشدهم إلى مراد الله تعالى بحيث لا تروج عليهم الشبه . والرسوخ في كلام العرب : الثبات والتمكن في المكان يقال : رسخت القدم ترسخ رسوخا إذا ثبتت عند المشي ولم تتزلزل واستعير الرسوخ لكمال العقل والعلم بحيث لا تضل الشبه ولا تتطرقه الأخطاء غالبا وشاعت هذه

الاستعارة حتى صارت كالحقيقة . فالراسخون في العلم : الثابتون فيه العارفون بدقائقه فهم يحسنون مواقع التأويل ويعلمونه .

ولذا فقوله (والراسخون) معطوف على اسم الجلالة وفي هذا العطف تشريف عظيم : كقوله (شهد ا أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) وإلى هذا التفسير مال ابن عباس ومجاهد والربيع بن سليمان والقاسم بن محمد والشافعية وابن فورك والشيخ أحمد القرطبي وابن عطية وعلى هذا فليس في القرآن آية استأثر ا بعلمها ويؤيد هذا أن ا أثبت للراسخين في العلم فضيلة ووصفهم بالرسوخ فآذن بأن لهم مزية في فهم المتشابه ؛ لأن المحكم يستوي في علمه جميع من يفهم الكلام ففي أي شيء رسوخهم . وحكى إمام الحرمين عن ابن عباس : أنه قال في هاته الآية " أنا ممن يعلم تأويله " .

وقيل : الوقف على قوله (إلا ا) وإن جملة (والراسخون في العلم) مستأنفة وهذا مروي عن جمهور السلف وهو قول ابن عمر وعائشة وابن مسعود وأبي ورواه أشهب عن مالك في جامع العتبية وقاله عروة بن الزبير والكسائي والأخفش والفراء والحنفية وإليه مال فخر الدين .

A E